اسم المادة الدراسية باللغة العربية : عصر الرسالة

اسم المادة الدراسية باللغة الانكليزية : History of the Prophetical Period

اسم المحاضرة : أهم الأحداث من غزوة فتح مكة إلى عام الوفود

اسم التدريسي : أ.د.مظهر عبد علي

المستوى الدراسي : الأول

الدراسة : الصباحية

الأسبوع : الرابع عشر

**غزوة فتح مكة سنة 8هـ :**

**أسبابها ، والاستعداد للخروج والشروع فيه :**

أمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين فقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة وتأديب كفارها ، وقيام السبب الجوهري والقانوني لغزو مكة , وهو نقض قريش للعهد والعقد ، ونلحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضيع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة ، فكان فتح خيبر, وذلك بعد صلح الحديبية ، والآن تتاح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها ، وتغيرت موازين القوى في المنطقة ، فكان لا بد من الاستفادة من المعطيات الجديدة ، فأعد صلى الله عليه وسلم جيشاً لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل ، فقد وصلت عدته إلى عشرة آلاف رجل .

**الاستعداد للخروج :**

إن حركة النبي صلى الله عليه وسلم في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا ، وخروجه في الغزوات , تعلمنا كيفية التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب , سواء كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية ، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنة واضحة في هديه صلى الله عليه وسلم ، فعندما قرر صلى الله عليه وسلم السير لفتح مكة ، حرص على كتمان هذا الأمر؛ حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته , وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه , وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

**1- كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه :**

فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمبدأ السرِّية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر - رضي الله عنه - أقرب أصحابه إلى نفسه ، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه ، فلم يعرف أحد شيئًا عن أهدافه الحقيقية , ولا باتجاه حركته , ولا بالعدو الذي ينوي قتاله ؛ بدليل أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول صلى الله عليه وسلم قالت له: ما سمى لنا شيئاً ، وكانت أحياناً تصمت ، وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئاً عن مقصده صلى الله عليه وسلم .

**2- بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم :**

بعث النبي صلى الله عليه وسلم قبل مسيرة مكة سرية مكونة من ثمانية رجال ؛ وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية ، وفي ذلك يقول ابن سعد: (لما همَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه إلى تلك الناحية ؛ ولأن تذهب بذلك الأخبار، فمضوا ولم يلقوا جمعاً ، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة ، فأخذوا على (بيبين) حتى لقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالسُّقيا .

**3- بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء :**

بث صلى الله عليه وسلم رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش, وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنقاب ، فكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه .. إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة .

**4- دعاؤه صلى الله عليه وسلم بأخذ العيون والأخبار عن قريش :**

وبعد أن أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسباب البشرية التي في استطاعته توجه إلى الله عز وجل بالدعاء والتضرع قائلاً: «اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة» .

**5- إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش :**

عندما أكمل النبي صلى الله عليه وسلم استعداده للسير إلى فتح مكة ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ، وأرسله مع امرأة مسافرة إلى مكة ، ولكن الله -سبحانه وتعالى- أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي على هذه الرسالة ، فقضى صلى الله عليه وسلم على هذه المحاولة وهي في مهدها ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عليّاً والزبير والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة ، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم , ثم استدعي حاطب- رضي الله عنه – للتحقيق , فقال: يا رسول الله ، لا تعجل علي ، إني كنت امرأ ملصقاً في قريش -يقول: كنت حليفاً- ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما إنه قد صدقكم» ، فقال عمر: يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم: إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فأنزل الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) [الممتحنة: 1] .

**النزول بمر الظهران وإسلام أبي سفيان بن حرب سيد قريش :**

تابع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيره حتى أتى مر الظهران فنزل فيه عشاء ، فأمر الجيش فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب ، قال العباس: فقلت: واصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه ، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة ، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة ، فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم ، قال: ما لك ، فداك أبي وأمي؟! قال العباس: قلت: ويحك يا أبا سفيان , هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس واصباح قريش والله! قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟! قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك ، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه ، فجئت به ، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني فلأضرب عنقه ، قال: قلت: يا رسول الله , إني قد أجرته ، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلا يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف ، فقال: مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به» , فلما أصبح غدوت به , فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد ، قال: «ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً ، فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك ، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم . قال العباس: قلت: يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً , قال: «نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: «يا عباس , احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل ، حتى تمر به جنود الله فيراها» قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم, فيقول: ما لي ولسليم ، ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة , فيقول: ما لي ولمزينة ، حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، قال: سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن ، قال: قلت: النجاء إلى قومك .

**خطة النبي صلى الله عليه وسلم لدخول مكة وفتحها**

**1- توزيع المهام بين قادة الصحابة :**

عندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذي طوى وزع المهام ، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى ، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى ، وجعل أبا عبيدة على البياذقة وبطن الوادي ، فقال: «يا أبا هريرة ادع لي الأنصار» فدعاهم فجاءوا يهرولون ، فقال: «يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش؟» قالوا: نعم ، قال: «انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً» وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: «موعدكم الصفا» .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم , وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون , ولا يبرح حتى يأتيه ، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة ، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم , وبهذا كانت المسؤوليات واضحة ، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه .

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آنٍ واحدٍ , ولم تلق تلك القوات مقاومة ، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربة قاضية لفلول المشركين ، حيث عجزت عن التجمع , وضاعت منها فرصة المقاومة ، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد ، ونجحت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فلم يستطع المشركون المقاومة ، ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى ، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها ، في سلم واستسلام ، إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد ، فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية , وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو وغيرهم مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخندمة) وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام , وصمموا على القتال ، فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم , وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتت شمل أفرادها ، وبذلك أكمل الجيش السيطرة على مكة المكرمة .

لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول ؛ لكي يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات ، وإراقة الدماء ، وكان الشعار المرفوع: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» ، وجعل صلى الله عليه وسلم لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء , ويستخدمه كمفتاح أمان يفتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء , ويشبع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان من قلبه .

لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش , هذا محمد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميث الدسم الأحمس -تشبهه بالزق لسمنه- ، قبح من طليعة قوم . قال: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم ؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

وحرص النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل الكداء التي بأعلى مكة ومما يؤيد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على دخوله من كداء ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر؛ فتبسم إلى أبي بكر فقال: «يا أبا بكر, كيف قال حسان؟» فأنشده قوله: تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالخُمُر النساء

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام , وهو واضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل ، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب ، وإفاضة النصر العزيز , وعندما دخل مكة فاتحاً -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة ، والتواضع والخضوع ، فأردف أسامة بن زيد -وهو ابن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم- ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة .

هذا وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح ؛ ولذلك عندما بلغته مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة ، اليوم نستحل الكعبة , قال صلى الله عليه وسلم: «هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى فيه الكعبة» ، وأخذ الراية من سعد بن عبادة وسلمها لابنه قيس بن سعد ؛ وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنى عنها ، وفي نفس الوقت لم يثره , ولا أثار الأنصاري ، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه ، ومن طبيعة البشر ألا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه .

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به ، وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول: (جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) [الإسراء:81] (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) [سبأ:49] ، والأصنام تتساقط على وجوهها وإنه لمظهر رائع لنصر الله وعظيم تأييده لرسوله ، إذ كان يطعن تلك الآلهة الزائفة المنثورة حول الكعبة بعصا معه ، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه حتى ينكفئ على وجهه أو ينقلب على ظهره جذاذاً , ورأى في الكعبة الصور والتماثيل فأمر بالصور وبالتماثيل فكسرت وأبى أن يدخل جوف الكعبة حتى أخرجت الصور، وكان فيها صورة يزعمون أنها صورة إبراهيم وإسماعيل وفي يديهما من الأزلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قاتلهم الله ، لقد علموا ما استقسما بها قط ... » ، ثم دخل البيت وكبَّر في نواحيه ثم صلى , فقد روى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة ، فأغلقها عليه ثم مكث فيها , قال ابن عمر: فسألت بلالا حين خرج: ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه -وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة- ثم صلى .

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة ، قبل أن يسلم ، فأراد علي - رضي الله عنه - أن يكون المفتاح له مع السقاية ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ورده إليه قائلاً: اليوم يوم بر ووفاء ، وكان صلى الله عليه وسلم قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فأغلظ له القول ونال منه ، فحلم عنه , وقال: «يا عثمان ، لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي , أضعه حيث شئت» فقال: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت ، فقال: «بل عمرت وعزت يومئذ» ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً ، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال , ولقد أعطى له رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان , اليوم يوم بر ووفاء ، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» ، وهكذا لم يشأ النبي صلى الله عليه وسلم أن يستبد بمفتاح الكعبة ، بل لم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم ، وقد تطاول لأخذه رجال منهم ، لما في ذلك من الإثارة ، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق ... هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله صلى الله عليه وسلم: البر والوفاء حتى للذين غدروا ومكروا ، وتطاولوا ، هذا , وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً أن يصعد فوق ظهر الكعبة فيؤذن للصلاة , فصعد بلال وأذن للصلاة ، وأنصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم في حلم ، إن هذه الكلمات تقصف في الجو فتقذف بالرعب في أفئدة الشياطين ؛ فلا يملكون أمام دويها إلا أن يولوا هاربين ، أو يعودوا مؤمنين ، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر ذلك الصوت الذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أحد ، أحد ، أحد .. ها هو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، والكل خاشع منصت خاضع .

**إعلان العفو العام :**

نال أهل مكة عفواً عامّاً على الرغم من أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته ، على الرغم من قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم , وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم , فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيراً أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ ، فقال: (لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ) [يوسف:92] .

**غزوة حنين سنة 8هـ :**

**أسبابها وأحداث الغزوة :**

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين ، وخضعت له قريش , خافت هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا ، وأجمعوا أمرهم على هذا ، وولوا عليهم مالك بن عوف النصري ، فاجتمع إليه هوازن ، وثقيف وبنو هلال , ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب , وكان معهم دريد بن الصمة ، وكان معروفاً بشدة البأس في الحرب وأصالة الرأي ، إلا أنه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي والمشورة .

وكان رأي مالك بن عوف أن يخرجوا وراءهم النساء والذراري والأموال حتى لا يفروا ، فلما علم بذلك دريد سأله: لم ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فقال دريد: راعي ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ، ولكنه لم يستمع لمشورته .

تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوال وقد استخلف الرسول صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة عند خروجه ، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفا من المسلمين , أما عدد هوازن وثقيف فكانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر، ولما رأى بعض الطلقاء جيش المسلمين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة , ودخل الإعجاب في النفوس ، ولما بلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عزم هوازن على حربه بعد أن تم له فتح مكة -شرفها الله- قام بالآتي:

**1- أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي حتى يوافيه بخبر هوازن :**

فذهب - رضي الله عنه - ومكث بينهم يوماً أو يومين ثم عاد وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول صلى الله عليه وسلم وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء , إلا أنه قصر - رضي الله عنه - في أداء هذا الواجب حيث لم يختلط بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يدبر ضد المسلمين هناك ، وكان من أهم ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها , وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى ، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة , وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن هذا الأمر ليس وحياً من الله سبحانه وتعالى , وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية ، وقد بذل النبي صلى الله عليه وسلم جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو .

**2- عدة الجيش واستعارة الدروع والرماح :**

أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشًا قوامه عشرة آلاف -وهم من خرجوا معه من المدينة- وألفان من مسلمة الفتح ؛ فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفاً ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعمهم ومع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء وهم ألفان , وسعى صلى الله عليه وسلم لتأمين عدة الجيش فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة ، وطلب من صفوان بن أمية دروعاً , وتكفل صلى الله عليه وسلم بالضمان , وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما ، عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم -أو قال فادفع إليهم- ثلاثين درعاً وثلاثين بعيراً ، أو أقل من ذلك» فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله ، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم» ، وفي رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعار منه يوم حنين دروعاً فقال: أغصباً يا محمد؟ قال: «لا , بل عارية مضمونة» قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضعها له ، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب ، قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم .

**3- ثباته صلى الله عليه وسلم وأثره في كسب المعركة :**

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين ، واختاروا مواقعهم , وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره ، وكانت خطتهم تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات ، فاضطربت صفوفهم , وماج بعضهم في بعض ، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه ، وبقي الرسول صلى الله عليه وسلم ونفر قليل في الميدان يتصدون لهجمات المشركين , ووصف العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء ، فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مدبرين , فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة ألا تسرع , فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أي عباس ، نادِ أصحاب السمرة» فقال العباس -وكان رجلاً صيتاً-: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها ، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال: فاقتلوا الكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث من الخزرج , فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته ، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا حين حمي الوطيس» .

لقد أيد الله نبيه صلى الله عليه وسلم يوم حنين بأمور منها: نزول الملائكة من السماء ، وسلاح الرعب ، وتأثير قبضتي الحصى والتراب في أعين الأعداء ، كانت من الأسلحة المادية التي أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتراب اللتين رمى بهما وجوه المشركين، حيث دخل في أعينهم كلهم من ذلك الحصى والتراب فصار كل واحد يجد لها في عينيه أثراً ، فكان من أسباب هزيمتهم .

ولما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس , فلقي دُريد بن الصمة، فقتل دريد ، وهزم الله أصحابه ، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته ، رماه جُشمي بسهم فأثبته في ركبته ، فانتهيت إليه فقلت: يا عم , من رماك؟ فأشار إليَّ فقال: ذاك قاتلي الذي رماني ، فقصدت له ، فلحقته ، فلما رآني ولى فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك ، قال: فانزع هذا السهم ، فنزعته فنزا منه الماء .

قال: يا ابن أخي أقرئ النبي صلى الله عليه وسلم السلام وقل له: استغفر لي ، واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات ، فرجعت فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في بيته على سرير مُرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقوله: قل له استغفر لي ، فدعا بماء فتوضأ ، ثم رفع يديه فقال: «اللهم اغفر لعبيد أبي عامر» ورأيت بياض إبطيه ، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس» فقلت: ولي فاستغفر, فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً» .

**غزوة الطائف :**

حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الطائف , واستخدم أساليب متنوعة في القتال والحصار, ومارس الشورى ، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النفسية والدعاية في صفوف الأعداء ، ومن هذه الأساليب :

**1- استخدامه صلى الله عليه وسلم أسلوبا جديداً في القتال:**

استعمل النبي صلى الله عليه وسلم في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل , وهذه الأسلحة هي:

- المنجنيق: فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف ، فعن مكحول - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم نصب المنجنيق على أهل الطائف ، والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وجهت إليه , فبحجارته تهدم الحصون والأبراج , وبقنابله تحرق الدور والمعسكرات ، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال .

- الدبابة: ومن أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم لأول مرة في حصار الطائف: الدبابة ؛ والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء ، عندما يراد نقض جدار الحصن ، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمي .

- الحسك الشائك: من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم في حصاره لأهل الطائف: وهو من وسائل الدفاع الثابتة ، ويعمل من خشبتين تسمران على هيئة الصليب ، حتى تتألف منهما أربع شعب مدببة ، وإذا رمى في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة ، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال .

**2- اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم مكاناً مناسباً عند القتال :**

نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن ، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام ؛ فأصيب من جراء ذلك ناس كثيرون , وحينئذ عرض الحباب بن المنذر على الرسول صلى الله عليه وسلم فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف ، فقبل صلى الله عليه وسلم هذه المشورة وكلف الحباب -لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هذا المجال- بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند ، فذهب - رضي الله عنه - ثم حدد المكان المناسب , وعاد فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم جيشه بالتحول إلى المكان الجديد ، وهذا شاهد عيان يحدثنا عما رأى ؛ قال عمرو بن أمية الضمري - رضي الله عنه -: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم كأنه رجل جراد , وترسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة , ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحباب فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مستأخراً عن القوم» فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف خارج من القرية , فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحولوا .

**3- استخدام الحرب النفسية والدعاية :**

لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف , ثم أوقف هذا العمل بعد أثره في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة ، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل, ووجه النبي صلى الله عليه وسلم نداء لعبيد الطائف أن من ينزل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا ، فأعتقهم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم .

**4- الحكمة من رفع الحصار:**

كانت حكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم في رفع الحصار واضحة ؛ فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعة لها ، بل صارت ضمن سيادة الدولة الإسلامية ، ولم تعد تستمد قوتها إلا من امتناع حصونها ، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنك ، وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم من حوله في عملية الحصار فقال نوفل بن معاوية الديلي: ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك , فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك وقالوا: نرحل ، ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فاغدوا على القتال» فغدوا , فأصبت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنا قافلون غداً إن شاء الله» , فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك , فلما ارتحلوا واستقلوا ، قال: «قولوا: آيبون ، تائبون، عابدون ، لربنا حامدون» , وقيل: يا رسول الله , ادع الله على ثقيف , فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم» .

**غزوة تبوك سنة 9هـ :**

**تاريخها وأسماؤها :**

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر ، واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك ، نسبة إلى مكان هو عين تبوك ، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي ، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم , فقد روي بسنده إلى معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي» ، وللغزوة اسم آخر, وهو: غزوة العسرة ، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة ، قال تعالى: (لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: 117] .

لقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك ، فقد كان الجو شديد الحرارة ، والمسافة بعيدة ، والسفر شاقّاً لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة ، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد ، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه , ففي تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عقيل قال: خرجوا في قلة من الظهر, وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء ، فكان ذلك عسرة من الماء , وهذا الفاروق عمر بن الخطاب يحدثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين فيقول: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع , حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه وبضعه على بطنه .

وللغزوة اسم ثالث هو: الفاضحة , وسميت بهذا الاسم ؛ لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين , وهتكت أستارهم ، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة ، وأحقادهم الدفينة ، ونفوسهم الخبيثة , وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين .

أما موقع تبوك فيقع شمال الحجاز, يبعد عن المدينة 778 ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك .

**أسبابها :**

ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: وصلت الأنباء للنبي صلى الله عليه وسلم من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب , وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يغزوهم قبل أن يغزوه .

ويرى ابن كثير أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد ؛ ولذلك عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال الروم ؛ لأنهم أقرب الناس إليه ، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله , قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التوبة: 123] ، والذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب ، إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة بمن فيهم أهل الكتاب, الذين وقفوا في طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير ، ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزًا للخروج إليهم ، لأن أصل الخروج كان وارداً .

لقد كان المسلمون على حذر من مجيء غسان إليهم من الشام , ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب , فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه شهراً فهجرهن ، ففي صحيح البخاري: وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته ، فرجع عشاء فضرب بابي ضرباً شديداً ، وقال: أثمَّ هو؟ ففزعت ، فخرجت إليه ، وقال: حدث عظيم ، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا ، بل أعظم منه وأطول , طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه .

حث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة لبعدها ، وكثرة المشركين فيها ، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله ، فأنفق كل حسب مقدرته , وكان عثمان - رضي الله عنه - صاحب القِدْح المُعَلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة , فهذا عبد الرحمن بن حباب يحدثنا عن نفقة عثمان حيث قال: شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العسرة ، فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله , عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان ، فقال: يا رسول الله , عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، ثم حض على الجيش فقام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله , عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: ما على عثمان ما عمل بعد هذه ، ما على عثمان ما عمل بعد هذه ، وعن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي صلى الله عليه وسلم جيش العسرة ، قال: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم -يرددها مراراً-» .

وأما عمر فقد تصدق بنصف ماله وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك , وتحدث الفاروق بنفسه عن ذلك حيث قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أن نتصدق ، فوافق ذلك مالاً عندي , فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله ، قال: وأتى أبو بكر - رضي الله عنه - بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله ، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً ، وروى أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة ، وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة ، كالعباس بن عبد المطلب ، وطلحة بن عبيد الله ، ومحمد بن مسلمة ، وعاصم بن عدي رضي الله عنهم .

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء ، ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عقيل بنصف صاع تمر, وجاء آخر بأكثر منه ، فلمزوها قائلين: إن الله لغني عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء ، فنزلت الآية: (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ) [التوبة: 79] ، وقالوا: ما أعطي ابن عوف هذا إلا رياء ، فكانوا يتهمون الأغنياء بالرياء ويسخرون من صدقة الفقراء .

لقد حزن الفقراء من المؤمنين ؛ لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد , فهذا عُلَبة بن زيد أحد البكائين صلى من الليل وبكى ، وقال: اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ولم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك ، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض , فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد غفر له .

**موقف المنافقين من غزوة تبوك :**

عندما أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم النفير ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة ، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم: (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَن يُّجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ - فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [التوبة: 81 - 82] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في جهازه لتبوك ، للجد بن قيس: «يا جد , هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أوتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:«قد أذنت لك» ففيه نزلت الآية: (وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) [التوبة: 49] ، وذهب بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم مبدين أعذاراً كاذبة ليأذن لهم بالتخلف ، فأذن لهم , فعاتبه الله بقوله: (عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ) [التوبة: 43] .

**إعلان النفير وتعبئة الجيش :**

أعلن النفير العام للخروج لغزوة تبوك , حتى بلغ عدد من خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ثلاثين ألفاً ، وقد عاتب القرآن الكريم الذين تباطأوا بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إلى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ) [التوبة: 38] ، وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شبابًا وشيوخًا وأغنياء وفقراء بقوله تعالى: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [التوبة: 41] .

لقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى ، ولقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم -على غير عادته في غزواته- هدفه ووجهته في القتال ، إذ أعلن صراحة أنه يريد قتال بني الأصفر (الروم) , علما بأن هديه في معظم غزواته أن يوري فيها , ولا يصرح بهدفه ووجهته وقصده , حفاظاً على سرية الحركة ومباغتة العدو .

وقد استدل بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره ، وقد صرح صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة -على غير العادة- بالجهة التي يريد غزوها وجلى هذا الأمر للمسلمين لأسباب , منها:

1- بعد المسافة ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أن السير إلى بلاد الروم يعد أمراً صعباً ؛ لأن التحرك سيتم في منطقة صحراوية ممتدة قليلة الماء والنبات ، ولا بد - حينئذ- من إكمال المؤنة ووسائل النقل للمجاهدين قبل بدء الحركة ؛ حتى لا يؤدي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود .

2- كثرة عدد الروم , بالإضافة إلى أن مواجهتهم تتطلب إعداداً خاصّاً ، فهم عدو يختلف في طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبي صلى الله عليه وسلم من قبل ، فأسلحتهم كثيرة ، ودرايتهم بالحرب كبيرة , وقدرتهم القتالية فائقة .

3- شدة الزمان ، وذلك لكي يقف كل امرئ على ظروفه , ويعد النفقة اللازمة له في هذا السفر الطويل لمن يعول وراءه .

4- أنه لم يعد مجال للكتمان في هذا الوقت ، حيث لم يبق في جزيرة العرب قوة معادية لها خطرها تستدعي هذا الحشد الضخم سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ودومة الجندل والعقبة .

لقد شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربية ، ومراعاة المصلحة العامة في حالتي الكتمان والتصريح , ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال ، ولما علم المسلمون بجهة الغزوة سارعوا إلى الخروج إليها , وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على النفقة قائلاً : «من جهز جيش العسرة فله الجنة» .

واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري ، وخلَّف علي بن أبي طالب على أهله ، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً وتخففاً منه ، فأخذ علي - رضي الله عنه – سلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال: يا نبي الله , زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني وتخففت مني ، فقال: «كذبوا , ولكني خلفتك لما تركت ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك , أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي» ، فرجع عليُّ إلى المدينة ، وكان استخلاف علي - رضي الله عنه - في أهله باعتبار قرابته ومصاهرته , فكان استخلافه في أمر خاص ، وهو القيام بشأن أهله ، وكان استخلاف محمد بن مسلمة الأنصاري في الغزوة نفسها استخلافًا عامًّا، فتعلق بعض الناس بأن استخلاف علي يشير إلى خلافته من بعده ، ولا صحة لهذا القول ؛ لأن خلافته كانت في أهله خاصة .

وعندما تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله، اختار الأمراءَ والقادة وعقد الألوية والرايات لهم ، فأعطى اللواء الأعظم إلى أبي بكر الصديق , ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام - رضي الله عنه - ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة ، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواء ، واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر، فكان - رضي الله عنه - يطوف في أصحابه على العسكر, وكان دليل رسول الله في هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي ، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك .

عندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم لم يجد أثراً للحشود الرومانية ولا القبائل العربية , وبالرغم من أن الجيش مكث عشرين ليلة في تبوك لم تفكر القيادة الرومانية مطلقاً في الدخول مع المسلمين في قتال ، حتى القبائل العربية المنتصرة آثرت السكون ، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية ، فقد أرسل ملك أيلة للنبي صلى الله عليه وسلم هدية -وهي بغلة بيضاء وبرد- فصالحه على الجزية .

وأرسل خالد بن الوليد - رضي الله عنه - على رأس سرية من الفرسان بلغ عددها أربعمائة وعشرين فارساً إلى دومة الجندل ، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أكيدر بن عبد الملك الكندي -ملكها- وهو في الصيد خارجها , فصالحه النبي صلى الله عليه وسلم على الجزية , وقد تعجب المسلمون من قباء كان أكيدر يلبسه , فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» ، وقد ورد أن غنائم خالد من أكيدر كانت ثمانمائة من السبي وألف بعير وأربعمائة درع وأربعمائة رمح , وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبي صلى الله عليه وسلم وهي بغلة بيضاء وبرد ، فصالحه على الجزية , وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدات لكل من أهل جرباء وأذرح ، ولأهل مقنا يؤدي بموجبها هؤلاء الناس من نصارى العرب الجزية كل عام ، وتخضع لسلطان المسلمين ، لقد انفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة وعقد معها معاهدات , وبذلك أمن حدود الدولة الإسلامية الشمالية , وبهذه المعاهدات قص صلى الله عليه وسلم أجنحة الروم ، فقد كانت هذه القبائل تابعة للروم ودخلوا في النصرانية ، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية يعد قصاً لهذه الأجنحة ، وبتراً لحبال تبعيتهم للروم ، وتحريراً لهم من هذه التبعية التي كانت تذلهم وتخضعهم لسلطان الروم ، لينالوا من تساقط فتاتهم شيئا يعيشون به ، وخوفاً من ظلمهم لقوتهم الباطشة , وقد وفوا بعهد الصلح والتزموا أداء الجزية , فأعطوها عن يد وهم صاغرون , وهذه سياسة نبوية حكيمة اختطها رسول الله في بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله ، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين والروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة وتخضع لحكم المسلمين ، وأصبحت في زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز سهلت مهمة الفتح الإسلامي في عهدهم , فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم .

**عام الوفود سنة 9هـ :**

لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وفرغ من تبوك , وأسلمت ثقيف وبايعت , وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمد أربعة أشهر لقبائل العرب المشركين لكي يقرروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتخذ الدولة الإسلامية منهم موقفاً معيناً ، ضربت إليه وفود العرب آباط الإبل من كل وجه معلنة إيمانها وولاءها , وقد اختلف العلماء في تاريخ مقدم الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عددها , حيث أشارت المصادر الحديثة والتاريخية إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخ مبكر عن السنة التاسعة ؛ ولعل مما أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد على ستين وفدا عند البعض ، وليرتفع فيبلغ أكثر من مائة وفد عند آخرين ، ولعل البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم فقد أورد محمد بن إسحاق أنه: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة ، وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت , ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وقد استقصى ابن سعد في جمع المعلومات عن الوفود ، كما فصل كثيراً وقدم ترجمات وافية عن رجال الوفود ، ومن كانت له صحبة منهم ، وما ورد عن طريقهم من آثار, ولا تخلو أسانيد ابن سعد -أحياناً- من المطاعن ، كما أن فيها أسانيد من الثقات أيضاً ولا شك في أن الأخبار التي أوردها المؤرخون ليست ثابتة بالنقل الصحيح المعتمد وفق أساليب المحدثين , على الرغم من أن عددا كبيرا من المرويات عن تلك الوفود ثابتة وصحيحة فقد أورد البخاري معلومات عن وفد قبيلة تميم وقدومه إلى النبي صلى الله عليه وسلم , ووفود أخرى مثل: عبد القيس , وبني حنيفة ، ووفد نجران ، ووفد الأشعريين ، وأهل اليمن ، ووفد دوس وتعززت أخبار هذه الوفود بمعلومات إضافية وردت في مصادر تاريخية إلى جانب ما ورد عنها في كتب السير والمغازي وقد أورد مسلم أخباراً عن أغلب الوفود المذكورة آنفاً كما أوردت بقية الكتب الستة معلومات أوسع شملت عدداً كبيراً من الوفود .

لقد تركت لنا تلك الأخبار والقصص منهجاً نبوياً كريماً في تعامله صلى الله عليه وسلم مع الوفود يمكننا الاستفادة من هديه صلى الله عليه وسلم في تعامله مع النفسية البشرية وتربيته ودقته وتنظيمه , ففيها ثروة هائلة من الفقه الذي يدخل في دوائر التعليم والتربية والتثقيف وبعد النظر وجمع القلوب على الغاية , وربط أفراد بأعينهم بالمركز بحيث تبقى في كل الظروف والأحوال مرتكزات قوية إلى الإسلام , إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كل الحقول نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وإدارياً وسياسياً وعسكرياً تعطي لكل عامل في جانب من هذه الجوانب دروسا تكفيه وتغنيه ، هذا وقد تميز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة , وقد استعدت الدولة الإسلامية لاستقبالهم وتهيئة المناخ التربوي لهم ، وقد تمثل هذا الاستقبال ، بتهيئة مكان إقامة لهم وكانت هناك دار للضيافة ينزل فيها الوافدون ، وهناك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان ساحة للاستقبال ، ثم كان هناك تطوع أو تكليف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد الصحابة باستضافة بعض القادمين واهتم صلى الله عليه وسلم بتلك الوفود وحرص على تعليمها وتربيتها .

وقد كانت تلك الوفود حريصة على فهم الإسلام وتعلم شرائعه وأحكامه ، وآدابه ، ونظمه في الحياة ، وتطبيق ما علموه تطبيقاً عملياً ، جعلهم نماذج حياة لفضائله ، وقد كان لكثير منهم تساؤلات عن أشياء كانت شائعة بينهم ابتغاء معرفة حلالها وحرامها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حريصاً أشد الحرص على تفقيههم في الدين ، وبيان ما سألوه عنه , وكان صلى الله عليه وسلم يدني منهم من يعلم منه زيادة حرص على القرآن العظيم وحفظ آياته تفقهاً فيه ويقول لأصحابه: فقهوا إخوانكم وكان صلى الله عليه وسلم يسأل عمن يعرف من شرفائهم ، فإذا رغبوا في الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق ، وحثهم على الاعتصام بالصبر، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان ، ويسوي بينهم , فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هداة دعاة مشرقة قلوبهم بنور الإيمان ، يعلمونهم مما علموا ، ويحدثونهم بما سمعوا ، ويذكرون لهم مكارم النبي وبره وبشره واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه ، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تآخيهم وتحاببهم , ومواساة بعضهم بعضاً ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقاء أصحابه , ويحببوا إليهم التأسي بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيتها كوفود نصارى نجران ووافقت على دفع الجزية .